المبحث الثاني

الطبيعة

فتن مسلم بمظاهر الطبيعة التي احتلت جزءا كبيرا من مخزون ذاكرته وأمدته بكثير من المعاني والصور التي كان لصداها أثر كبير في نفسه، ذلك أن للظروف البيئية أثرا كبيرا في تحديد نمط تفكير الانسان والفنان خاصة وإحساسه وسلوكه سواء أكانت هذه الظروف طبيعية ام اجتماعية، كما أنها تعد من أقوى العوامل في تكوين عقلية الشعوب (١)، وقد تجاوب الشعراء مع الطبيعة على مر العصور، ونظرا للعلاقة الوثيقة بين الشعر والطبيعة صار الشعر مرآة لحياة الاديب، وصورة ناصعة للبيئة التي يعيش فيها ويصورها، وقد تعامل مسلم مع مظاهر الطبيعة على وفق دلالات ارتبطت بتجربته الشعرية، لأنه تأثر ببيئته فصور ما شاهده وأحسه، فجاء شعره كأنه لوحات منقولة بدقة حاول أن يبث فيها المشاعر والحياة.

والطبيعة التي نريدها هنا هي الصامتة والحية نحو البحر والنهر والنبات والفصول الاربعة والشمس والقمر والكواكب والسماء والارض والصحراء والسهل والجبل.

البحر: إن صورة البحر بأمواجه وضفافه حاضرة في مخيلة مسلم، فحينما شد الرحال إلى الممدوح على ظهر السفينة وصف أمواج البحر الملتطمة وجرجرة الآذي (٢)، ويستمد من هذه الصورة صورة أخرى للممدوح فيشبهه بالبحر، فبعد أن قطع البحر وصل إلى بحر آخر بفيضه وسخائه وكرمه وهو الممدوح، فقال: (الطويل)

ركبنا إليه البحر في مؤخراته فأوفت بنا من بعد بحر الى بحر (٣)

---

(١) ينظر فجر الإسلام – احمد امين ص٤٤.
(٢) ينظر شرح ديوانه ص١٠٥، الجرجرة: صوت الماء، الآذي: الموج.
(٣) م.ن ص ١١١.

وتشبيه الممدوح بالبحر ليس من الصور الجديدة لكن إخراجه بهذه الصورة جعله قريبا جدا وذا وقع خاص في نفس المتلقي.

ويظهر أن صورة البحر بأمواجه المتلاطمة لم تفارق مخيلته، فراح يستمد منه صورا رائعة عبر فيها عن معاناته في الحب، فجعل للحب بحرا أغرقه موجه المتلاطم مثل قوله:-(الطويل)

توسطت بحر الحب حين ركبته فغرقتني آذية المتلطم (١)

ويطلب الإغاثة ممن أحبهم لأنه غارق في بحر هواهم ولا يجيد العوم، فيقول:-

طفوت على بحر الهوى فدعوتكم دعاء غريق ماله متعوم(الطويل)

لتستنقذوني أو تغيثوا برحمة فلم تستجيبوا لي ولم تترحموا

ركبت على اسم الله بحر هواكم فيارب سلم أنت أنت المسلم(٢)

ويعود في قصيدة أخرى ويجعل الممدوح بحرا أدركت سواحله أطراف البلاد لسعة جوده وكرمه فيقول:- (الطويل)

هو البحر يغشى سرة الأرض سيبه وتدرك أطراف البلاد سواحله (٣)

وفي صورة أخرى لايشبه الممدوح بالبحر، إنما جعل كرمه وسخاءه بحرا فياضا يحمده وراده: (مجزوء الرجز)

وبحره فياض يحمده الوراد (٤)

(١) شرح ديوانه ص١٧٩.
(٢) م.ن ص ١٧٧.
(٣) م.ن ص ١٤٦، السيب:العطاء والعرف.
(٤) م. ن ص ٢٤٣.

وأراد أن يصور كثرة عطاء الممدوح فجعله بحرا خضرما فقال:- (الطويل)

وفعلــك محمــود ومجــدك شــامخ وجـودك موجـود وبحـرك خضـرم [١]

وعندما أراد أن لا يجعل لممدوحه مثيلا في الكرم والعطاء، تجاوز كل هذه الصور التي جعلت من الممدوح بحرا في عطائه وجوده، فجعل البحر على كثرة مائه يطلب السعي إلى الممدوح ليأخذ من عطائه وكرمه فقال:(الكامل)

إن الرفــاق أتتــك تلــتمس الغنــى والبحــر لــو يجــد الســبيل أتاكــا [٢]

وهل توجد للكرم صورة أخرى بعد هذه الصورة ؟ فالرفاق لا تأتي إليه من شظف العيش والحاجة إنما تأتي اليه من أجل الغنى، والبحر على غناه وكثرة مائه الذي لا ينضب يطمع في كرمه لأن الممدوح أندى منه.

ويطلب من ماء الفرات أن يخبره أين ذهبت بأهلها السفن، وعندما عبر عن دوام حزنه وبكائه جعل دموعه من كثرتها كأنها تغرف من بحر [٣].

الروضيات: افتتن مسلم بالروضيات فكان يعود إليها في قصائده بين حين وآخر للتعبير عن مشاعره واستيحاء صوره، وعلى الرغم من أنه لم ينظم قصائد مستقلة فيها إلا أنه جسد أحاسيسه في مشاهد مؤثرة، فغدت الروضيات مصدرا مهما من مصادر صوره الشعرية، ويرى أحد الباحثين المعاصرين أن مسلما (أول من ذكر الروضيات ووصفها في مستهل قصائد المديح، ويكون بذلك أيضا سبق الشعراء الأندلسيين في هذا الميدان)[٤]

فقد قال:(الطويل)

وكنــا أليفــي لــذة شــمل صفــوة حليفــي صـفاء مـا نخـــاف لـه غـدرا

---

(١) م.ن ص ١٨٣.
(٢) م ن ص٩٨.
(٣) ينظر شرح ديوانه ص ٣٢٠،١٧٢.
(٤) رحلة الشعر من الاموية الى العباسية. مصطفى الشكعة ص ١٤٣.

فعدنا كغصني أيكة كلما جرت لها الريح ألقت منهما الورق الخضرا[1]

أراد أن يعبر عن تفرق الشمل وتعكر الصفاء بينهما، فلم يجد أجمل من هذه الصورة ليوظفها، فجعل حاليهما كغصني أيكة تساقط منهما الورق الأخضر بفعل الريح العاتية الآتية من الواشين الذين فرقوا جمع شمليهما.

وعندما أراد أن يصور مدى عشقه المتجدد والمتوهج دائما جعل لحبيبته في فؤاده غصنا مورقا في كل الأوقات فقال:-(المنسرح)

ففي فؤادي لحبها غصن في كل حين يورق الغصن [2]

ومن شدة افتتانه بالطبيعة تغزل بالتفاحة وشبه حمرتها بحمرة خد فتاة خجلة من خلال التشبيه المقلوب فقال: (مجزوء الرجز)

تفاحة شامية من كف ظبي غزل

ما خلقت مذ خلقت تلك لغير القبل

كأنما حمرتها حمرة خد خجل [3]

وفي مستهل إحدى مدائحه راح يصف لنا روضة من الروضيات ويصور اخضرارها وعبق ريحانها وسعتها، فقال:(الطويل)

وخضراء يدعو شجو مكيها الصدى إذا نسفتها الريح ريحانها شعل

سقاها الثرى ماء الندى وأسرها من القيظ حتى أمرع السارح الربل

إذا درجت فيها الجنوب تعانقت بها سامقات الزهر واصطحب البقل

(١) شرح ديوانه ص٤٤-٤٥.
(٢) م. ن ص١٧٤
(٣) شرح ديوانه ص ٣٣٧.

كساها الخلا الوسمي من كل جانب طرائـق حتـى سـود حوزاتهـا شهـل

تحلـب منهـا مستسـر مـن النـدى بريح الصبا والروض أعينه خضل[1]

ولأن الربيع فصل الاخضرار والعشب والكلأ، فلم يجد أجمل منه ليصور كرم المرثي فقال:-(البسيط)

كـان الربيـع إذا ضـن السـحاب لهـم وفـي اللـوازب مرتـادا لممتـار [2]

ولأن الرند شجر طيب الرائحة فقد جعله القضيب الذي تخط به صاحبته كتابها[3]

واهتم بالورد واستمد منه صورا لغزله، فشبه خدود وصيفة أعجبته بالورد فقال:(البسيط)

عينـاك راحـي وريحـاني حـديثك لـي ولون خديك لون الورد يكفيني [4]

وصور جمال الورد على الأرض بقطعة رقيقة حضرية الألفاظ فقال:

كـم مـن يـد للـورد مشكـورة عندي وليست كيد النرجس (السريع)

الـورد يـأتي ووجـوه الربـى تضـحك عـن ذي بـرد أملـس

وقـد تحلـت بعقـود النـدى نابتـة فـي الأرض لـم تغـرس

(١) م.ن ص ٢٦١-٢٦٢، المكا: الصفير، ريحانها شعل: مشتعلة الرائحة، امرع: أكلا أو اخصب بكثرة الكلا، الربل: نبت، درج: مشى، والدروج من الرياح السريعة المر، سامق: سمق الذبات إذا طال، البقل: البقل من النبات ما ليس بشجر دق ولا جل، الوسمي: مطر اول الربيع وهو بعد الخريف لانه يسم الأرض بالنبات فيصير فيها أثرا، السود: جماعة النخل والشجر لخضرته واسوداده، الحوزة: الناحية والطبيعة، تحلب: سال، خضل: كل شيء ند، ينظر لسان العرب مادة مكا، وسم، حلب، درج، خضل، سود.

(٢) شرح ديوانه ص ٢٢٩، اللوازب: الشدائد، المرتاد: الطالب لاهله مرعى.

(٣) ينظر شرح ديوانه ص ١٩١.

(٤) م ن ص ٣٤٤ وينظر ص٣٢٦.

ولـن تـرى النـرجس حتـى تـرى روض الخزامـــى رثـــة الملبـــس

وتخلـــق النكبـــاء مـــا جـــددت أيـدي الغـوادي فـي سـنا السـندس

هنـــاك يأتيـــك غريبـــا علـــى شـــوق مـــن الأعـــين والأنفـــس (١)

وشبه خد الحبيبة بالورد، وثغرها بالأقحوان، وثمار صدرها بالرمان (٢).

أما الرياح فكانت صورتها ماثلة في خياله، واستمد من سرعتها صورة لممدوحه، وجعل ريح الصبا والشمال لاتهب ببابه عند هبوبها لأن الممدوح غلبها، إذ يقول:

(الكامل)

غلـب الريـاح فمـا تهـب ببابـه يومـا إذا هبـت صـبا وشـمالا (٣)

وعندما يهدي سلامه لمن أحب يرسله مع ريح الجنوب، وهو يحسد الريح لأنها لامست جسم الحبيب ويحبها إذا أتت بريحه (٤).

وتكررت صورة الفلاة والبيداء عنده و هو يصف رحلته الى الممدوح، فقد صور الفلاة في إحدى مدائحه بأنها قاطعة رجل السبيل لايدخلها أحد، والريح تصـــــــوت فيهـــــــا لاتســـــــاعها، إذ يقـــــــول: (الطويل)

وقاطعـــة رجـــل الســـبيل مخوفـــة كـــأن علـــى أرجائهـــا حـــد مبـــرد

عـــزوف بأنفـــاس الريـــاح أبيـــة على الركب تستعصي على كل جلعد

(١) م. ن ص ٣٢٤-٣٢٥ الخزامى: نبت طيب الريح

(٢) ينظر م. ن ص ٣٤٠.

(٣) م.ن ص ٢٠٥.

(٤) ينظرشرح ديوانه ص١٩٣، ٢٧٤، وقد وضعت العرب لكل ريح اسما يختلف باختلاف مناطق هبوبها، فالتي تهوي من مطلع الشام هي الشمال، لأن مهبها من بلاد العرب فيما يلي الشمال، والتي تهوي من مطلع الشمس، اطلقوا عليها الصبا، كما سموها القيول، وكانت العرب تجعل بيوتها بأزاء الصبا ومطلع الشمس – ينظر الطبيعة في الشعر الجاهلي ص٥٣.

يقصر قاب العين في فلواتها نواشز صفوان عليها وجلمد (١)

ومما يدلل على أن الصور البدوية ماثلة في ذهنه كثرة استعاراته وتشبيهاته وصوره المستمدة من الصحراء القفر (٢).

وعندما أراد أن يصف كرم الممدوح وسخاءه وصفه بأنه لا يقيم بموضع يهان فيه وأنه عارف بالسرى في كل أرض قفر (٣).

ويأتي الجبل في صوره ليدل على القوة والصبر والثبات، فقد جعل من ممدوحيه جبلا منيعا فقال: (الطويل)

فجاور (بني الصباح) تعقد بذمة وتأو إلى حصن منيع ومعقل (٤)

وشبه الخليفة بالجبل، وجعل يزيد وابنه ركنيه فقال:- (البسيط)

لله من هاشم في أرضه جبل وأنت وابنك ركنا ذلك الجبل (٥)

ووظف صورة المطر للتعبير عن كرم الممدوح وجوده، فقد شبهه بالمطر الذي يحيي الأرض الميتة فقال:- (الرمل)

إنما كنا كأرض ميتة ليس للزائر فيها منتظر

فحيينا بك إذ وليتنا وكذاك الأرض تحيا بالمطر (٦)

(١) شرح ديوانه ص٧٤-٧٥.
(٢) ينظر م. ن ص ١٩٢، ٢٢٦.
(٣) ينظر م. ن ص ٢٧.
(٤) م. ن ص٣١.
(٥) م ن ص ٢٢.
(٦) شرح ديوانه ص ٣٢٣

وفي صورة أخرى جعل ممدوحه الحيا الذي لا تذمه الرواد [١]

وعندما أراد أن يعبر عن انبساط كرم الممدوح إلى كل البلاد اختار صورة السيل الذي يلي المطر الكثيف ويصل إلى أماكن أخرى، فقال:- (البسيط)

تـأتي عطايـاه شـتى غيـر واحـدة مؤمليـه وإن كـانوا علـى بعـد

كحملـة السـيل تـأتي بعـد عاشـرة لـه قراقيـر بـالآذي والزبـد [٢]

والممدوح في كرمه الذي عم الناس جميعا كالسحابة التي أصابت بمطر ها كل الأرض:- (البسيط)

يمنـى يـديك لنـا جـدوى مطبقـة هذا السحاب بأعلى الأفق يحكيها [٣]

والممدوح بكرمه وجوده كديمة ترنم تحتها شؤبوب [٤].

أما الشمس فقد تلونت عنده في صور مختلفة، شبه بها فتاته لحسنها وجمالها فقال:

كالشمس تبصر وجهه في وجهها تمشي فتسحب خلفها أذيالا [٥]

وفي صورة أخرى شبه الشمس والقمر بفتاته وذلك لبيان حسنها وجمالها فقال:

(البسيط)

أحببت من حبها من كان يشبهها حتى لقد صرت أهوى الشمس والقمرا

---

(١) م ن ص ٢٤٣، و سمي المطر بالحيا لأ نه سبب الخصب، ويجوز ان يكون من الحياة، لأن الخصب سبب الحياة، احيا الله الارض –أخرج فيها الذبات، وقيل إنما أحيا ها من الحياة – ينظر لسان العرب مادة – حيا.

(٢) شرح ديوانه ص٨٥ وينظر ص ١٨٠، ٣١٤.

(٣) م. ن ص ٢١٨، والسحابة المطبقة: التي اصابت بمطرها كل الارض.

(٤) م. ن ص ١١٩، الديمة: المطر الدائم في سكون، الشؤبوب: الدفعة من المطر - ينظر لسان العرب مادة ديم، شأب.

(٥) شرح ديوانه ص ٢٠٣، وينظر ص ٢٢٦.

(٦) م. ن ص ٢٩٠.

إن مسلما كثيرا ما يلجأ الى التشبيه المقلوب لكي يعطي الصورة بعدا دلاليا، ويعود في صورة أخرى ليجعل فتاته تسد وجه الشمس لتحل محلها، قائلا:- (السريع)

أقبلن في رأد الضحاء بها يسترن وجه الشمس بالشمس (١)

وفي صورة اخرى يزيد من حسن حبيبته وضياء وجهها فيجعلها تتباهى على الشمس، لأنها مضيئة بنورها أبدا، في حين تعرف الشمس بالمغيب إذ يقول:

وقد قالت لبيض آنسات يصدن قلوب شبان وشيب(الوافر)

أنا الشمس المضيئة حين تبدو ولكن لست أعرف بالمغيب (٢)

ولأن الشمس مصدر الحياة لكل الكائنات، ولكي يصور كرم الممدوح وعطاءه وثناءه، ولبيان رفعته وعلو منزلته فقد شبهه بالشمس في علوها واشعاعها ونورها المستمر الذي عم الآفاق، فقال:-(الكامل)

يلقاك منه ثناؤه وعطاؤه بذكاء رائحة وطيب مذاق

كالشمس في كبد السماء محلها وشعاعها قد شاع في الآفاق (٣)

والملاحظ أنه لم يخرج عما هو مألوف عند الشعراء في توظيف صورة الشمس لتصوير جمال وجه الحبيبة، إلا أنه كان يجعل إشراقة وجه الحبيبة أجمل وأبهى من الشمس لأنها لا تغيب ابدا.

ووظف صورة البدر للتعبير عن حسن الحبيبة وجمالها، فبات يخاطبه ويناجيه، وأن أثر الفراق في نفسه جعله يصور الليل عند أفوله يودع النجوم المضيئة فقال:-

فبت أسر البدر طورا حديثها وطورا أناجي البدر أحسبها البدرا

(١) م ن ص ٣٢٥.
(٢) م. ن ص ١٩١، وينظر ص١٧٨.
(٣)م ن ص٣٢٩.

إلى أن رأيت الليل منكشف الدجى يودع في ظلمائه الأنجم الزهرا [1]

وحبيبته كالبدر صعبة المنال لكن نور ها وجمالها أسر كل القلوب [2] و في الرثاء وظف صورة القمر للتعبير عن كرم المرثي وعظم إحسانه، لأنه كان كالبدر الذي يهتدي به الساري، فقال:-(البسيط)

الجود شيمته كالبدر سنته يكاد أن يهتدي في نوره الساري [3]

فصورة القمر هنا تثير الحزن واللوعة بعد ما كانت تثير الفرح في صوره الاخرى.

وفي المدح جعل هارون بدرا لبني هاشم واخته شمسا لهم [4].

وشبه ممدوحه بالقمر بعد أن جمع عدة تشبيهات في بيت واحد قائلا: (البسيط)

كأنه قمر أو ضيغم هصر أوحية ذكر أوعارض هطل [5]

والملاحظ أنه لم يخرج عن سنن الشعراء في تشبيهاته، لكن دلالات القمر تنوعت لديه وأخرجها بحلل جديدة تثير مشاعر القارئ.

واحتلت صورة النجوم ولمعانها مكانا متميزا في خياله، فكان يعود إليها بين حين وآخر، فقد قال:- (الكامل)

يخرجن من ليل كأن نجومه أسيافنا يوم العجاج الأغبس

ثم استقلت بالحتوف رماحنا والخيل في ليل مسدى ملبس [6]

---

(١) شرح ديوانه ص ٤٥-٤٦.
(٢) ينظر م ن ص ٣٠٤-٣٠٥، وينظر ص ١٩٥، ٢٧٩، ٣٠٦، ٣٢٥.
(٣) م. ن ص ٢٢٨.
(٤) ينظر م. ن ص ٢٧٩.
(٥) م. ن ص ٥٠.
(٦) شرح ديوانه ص١٣٤، الغبس: لون الرماد وهو بياض فيه كورة، مسدى: ممدود، ملبس: ألبس الارض.

فقد عاد الى التشبيه المقلوب، وشبه نجوم الليل بلمعان أسيافهم في الحرب، ويذكرنا البيت الأول ببيت بشار (ت١٦٧هـ) المشهور:

كـأن مثـار النقـع فـوق رؤسهـم وأسـيافنا ليـل تهـاوى كواكبـه (١)

فقد تميز بيت بشار بحسن الصياغة وجمال المعنى، لكن بيت مسلم تميز عنه وكما ذكرنا بتشبيهه نجوم الليل بلمعان اسيا فهم، في حين شبه بشار أسيافهم بكواكب الليل المتهاوية(٢).

وعندما أراد أن يصور منزلة الممدوح وعلو همته ورفعته وتفرده في المعالي جعل النجم على علوه أدنى منه فقال: (البسيط)

شـيدت بيتـك فـي عليـاء مكرمـة يقصـر الـنجم عـن أدنـى مراقيهـا (٣)

وللتعبير عن وجده وسهره بات يناجي النجم، ويعادي الشمس التي سماها (كوكب الصبح والفجرا)، لأنها تبشر بقدوم الصباح ورحيل فتاته، ويشبه بعده عن وصل الحبيبة ببعد الثريا عنه(٤). وقد اعتاد الشعراء على هذه المعاني والصور، لكنها تعددت عند مسلم مما يدل على أثرها الكبير في نفسيته.

أما علاقته بالليل فلم تكن علاقة اعتيادية،فقد أستمد كثيرا من صوره وتشبيهاته واستعاراته من الليل، وظلمته، وطوله، وقدومه، وانحساره، وضياء قمره، ولمعان نجومه، فتنوعت صوره وتعددت في مختلف الأغراض، فعند لقائه بحبيبته في ظلمة الليل نرى الليل قد قضى نحبه وذلك لإشراق وجه الحبيبة: (الطويل)

---

(١) ديوان بشار بن برد. علق عليه – محمد رفعت فتح الله ومحمد شوقي امين ٣١٨/١، النقع: غبار الحرب، ورواية الأغاني وأكثر كتب الأدب (فوق رؤسنا).

(٢) يرى د. ماجد الجغافرة أن مسلما (أراد أن يدخل صورة الرماح وهي ترتفع في الحرب، والخيل في ليل من الغبار، وكأنه أضاف الى ما جاء به بشار وغيره من صورة السيوف في غبار المعركة). التناص بين القديم والجديد ص ٧٠ (بحث)

(٣) شرح ديوانه ص٢١٨.

(٤) ينظر شرح ديوانه ص ٧٠، ٤٥، ٣٤.

ولمـــا تلاقينـــا قضـــى الليـــل نحبـــه بوجه لوجه الشمس من مائه مثل [١]

وجعل الليل يستمد سواده وظلامه من قرون صاحبته: (الطويل)

أجـــدك ماتـــدرين أن رب ليلـــة كـــأن دجاهـــا مـــن قرونـــك ينشـــر

صـــبرت لهـــا حتـــى تجلـــت بغـــرة كغـرة (يحيـى) حـين يـذكر (جعفـر)[٢]

ووصف أبو هلال العسكري هذا التشبيه بأنه أطرف الاستطراد وأنه أظرف ما قيل في ظلمة الليل وسواده [٣]، وأعجب الرشيد بهذين البيتين إعجابا شديدا [٤]،، وعلق أحد الباحثين المعاصرين على هذه الصورة بقوله إن (الربط بين لهوه في ليلة داجية تستمد سوادها من شعر غانيته حتى ينبلج فيها ضوء الفجر المسفر، وبين حال العبوس التي تبدو على يحيى إلى أن يذكر جعفر فتشرق أساريره، ويضيء وجهه قد ألف صورة أحرزت إلى قوتها براعة الابتكار والمهارة في التنسيق بين اجزائها)[٥]. وهذه الصورة ماثلة في خياله، فقد عاد من خلال التشبيه المقلوب أيضا فجعل سواد الشعر الذي يدل على الشباب غربانا وشبه الليل بهذه الغربان لشدة سواده: (الطويل)

وليـــل كغربـــان الشـــباب وصلتـــه بيـــوم كـــأن الشـــمس تقبســـه جمـــرا[٦]

واستعار للظلماء وجها وجعله يضحك لأن الغواني تبسمن: (الطويل)

تبسمن فاستضحكن طامسة الدجا عن الصبح والظلماء أوجهها طحل [٧]

وفي قوله استضحكن طامسة الدجا (استعار صفة الضحك لليل لتجسيد فكرة الشروق ولمعان نور الفجر باقترانه بلمعان أسنانهن عند الضحك)[١] ولكي يعبر عن

(١) م. ن ص ٢٦١.
(٢) م ن ص ٣١٦.
(٣) ينظر كتاب الصناعتين ص٤١٥، وديوان المعاني ٣٤٣/١.
(٤) ينظر العقد الفريد ١٩٧/٥
(٥) صريع الغواني مسلم بن الوليد – حسن علوان ص٢٠٣-٢٠٤.
(٦) شرح ديوانه ص٣١٨.
(٧) شرح ديوانه ص ٢٦١، الاطحل: مالونه الطحلة، وهو لون بين الغبرة والبياض بسواد قليل كلون الرماد.

سعادته بلقاء فتاته يجعل الليل بالرغم من طوله قصيرا، لأن ليل العاشقين قصير، فيقول:-

وقصر الليل عن حاجات أنفسنا كذاك ليل التلاقي ربما قصرا(٢)

وهذا الليل الذي كان سترا لهم يجعله بعد الافتراق واشيا لا أمان له. (البسيط)

لم نأمن الليل حتى حين فرقتنا كأنما الليل يقفو خلفنا الأثرا (٣)

ويتمنى دوام الليل الذي جمع بينه وبين طيف الخيال الذي زاره وبات هجودا معه في أطيب عيش:(البسيط)

قد قلت والصبح عندي غير مغتبط ما كان أطيب هذا الليل لو داما (٤)

فعندما يصف طول الليل يصور ما يعانيه من آلام وأحزان لأن الليل يثير في نفسه هواجس الأسى والحنين، ولشدة تأثير الليل في نفسه نراه يبتدع الصور والمعاني الجديدة، إذ أعطى لهواه صفة مادية عندما راح يقارن بين طوله وطول الليل، إذ من المعروف إن ليل العاشقين يكون طويلا جدا عند فرقة الاحباب، لكن مهما طال هذا الليل فإن هواها أطول منه عند مسلم إذ يقول:- (البسيط)

ما طال ليل به ذكراك أرقني هواك اطول من ليلي وإن طالا (٥)

---

(١) ملامح فنية متميزة في شعر مسلم بن الوليد ص ٣٧٠ (بحث).
(٢) شرح ديوانه ص ٢١٤.
(٣) م ن ص ٢١٤.
(٤) م. ن ص ٦٢.
(٥) م. ن ص ٢٧٨.

ويستذكر ليلته التي قضاها مع حبيبته تحت ستر الظلام كارها قدوم الصبح الذي يفرق بينهما [١].

ولتصوير ضخامة جيش الممدوح جعل الليل بظلمته ولمعان نجومه كأنه بعض أسلحته، وقد أراد بالتشبيه المقلوب هنا التعظيم والتضخيم فقال:- (الطويل)

أبوك استرد الشام إذ نفرت به ملقحة شعواء ليس لها بعل

بجيش كأن الليل بعض حديده تهادى الردى فيه الفوارس والرجل[٢]

وهذه الصورة تكررت عنده، فقد شبه نجوم الليل بلمعان أسيافهم في الحرب، [٣] واستعان بالليل ونجومه لتصوير ضخامة الجيش الذي ملآ الفضاء فقال:-

في عسكر تشرق الارض الفضاء به كالليل أنجمه القضبان والأسل

لايمكن الطرف منه أن يحيط به ما يأخذ السهل من عرضيه والجبل[٤]

وعندما يصور رحلته على الناقة يتحدى الليل وظلامه بمسيره وهتك أسرار الظلام، ثم يجعل الليل أنيسه الذي يستودعه الهموم [٥].

وقد تعددت الصور التي ذكر فيها رحلته مع الليل وقوة عزيمته التي قضت على متاعب الليل.[٦]

ومن الصور التقليدية التي وظفها مسلم صورة ليل الأرمد الساهر التي عبر بها عن همومه وأحزانه مثل قوله:- (البسيط)

---

(١) ينظر شرح ديوانه ص ٢١٣.
(٢) م. ن ص ٢٦٦.
(٣) ينظر م. ن ص ١٣٤ ينظر ص ٥٦ من هذا الفصل.
(٤) م ن ص٢٥١.
(٥) ينظر م. ن ص ٥٨-١٢٧،٥٩.
(٦) ينظر م. ن ص ٢٦، ٢٣٢،٢٤٧،٢٣١،٢٢١،١٥٥،١٢٩،١٠٧،٧٤، ٢٦٣.

أغرى بـه الشوق ليل الساهر الرمد ونظـــرة وكلـــت عينيـــه بالســـهد[١]

وجعل الليل كأنه إنسان قائم على قدم، وشبه نفسه وهو يسامر جاريته بالراهب المتبتل في عبادته لا يرقد ليله [٢].

يتضح لنا أن مسلما في تصويره الليل استوعب صور القدماء، وصاغ صوره صياغة فنية جديدة وظف فيها موهبته الشعرية وثقافته التراثية فعبر عن الفكرة الواحدة بصيغ متعددة[٣]، فقد عبر عن زوال الليل مثلا بقوله (تلفت نفس الدجى) و (قضى الليل نحبه) و (تقطعت انفاسه)و(انتضى الليل الصباح)[٤].

ومن المصادر التي استمدها مسلم ووظفها في صوره، والتي يمكن ان نعدها من مصادر الطبيعة صور الدهر والأيام والسنين، فقد عبر في صوره عن طاقاته الفكرية وفلسفته من خلال توظيف الزمان في صور حسية معبرة، ووظف صورة الدهر للتعبير عن صلابة الممدوح وكرمه معا، فالممدوح لا تقهره الأعداء كما أن الدهر لا تثنيه الخطوب، وهو في كرمه وشجاعته كالدهر الذي أوسع الناس إحسانا وإرغاما، [٥] ولولعه بالصور المادية جعل أول الدهر يحسد آخره لفخره بالممدوح:

فالدهـــــر يغـــبط أولاه أواخـــــره إذ لـم يكـن كـان فـي أعصـاره الأول

ولعظمة الممدوح وعلو شأنه فأن الدهر يهابه ولا يعصي له أمرا، لذلك فهو لا يهاب صروف الدهر وحوادثه [٧].

(١) م.ن ص٨٠ وينظر ص ٧٠، ٢٣٠.
(٢) ينظرشرح ديوانه ص٤٤.
(٣) ينظر ملامح متميزة في شعر مسلم بن الوليد ص ٣٧٠ (بحث).
(٤) ينظر شرح ديوانه ص٨١،٢٦١، ١٣٤، ٧٤.
(٥) ينظر م ن. ص ٦٣.
(٦) م.ن ص١٥، الأعصار: الدهور
(٧) ينظر م. ن ص ٢٢١، ٢١٨.

ثم نراه يندب الدهر وخطوبه ويشكو أفعاله ويحن لأيام الصبا ويتذكر الماضي ويشكو سوء حاله بعد أن ابتلاه الدهر ونفرت منه الليالي بخيرها وما كانت تحمله من متعة الشباب والقوة ويتمنى لو يستطيع الدهر أن يعود قليلا(١).

ويعبر عن إحساسه بوطأة الزمن وويلاته فيذم أيامه ويصف إضرار الدهر به الذي جعله كالأسير المقدم للسيف: (البسيط)

من بعد ما ألقت الأيام لي عرضا ملقى رهين لحد السيف مصفود

وساورتني بنات الدهر فامتحنت ربعي بممحلة شهباء جارود (٢)

وكثيرا ما يشكو حوادث الدهر ونوائبه ونكباته بصور تشخيصية فنراه يجعل الدهر راميا يرمي فؤاده بالسهام ويفرق بينه وبين أحبته، وأحيانا يخاطب الدهر المتقلب ويعاتبه ويرجو منه أن يعود عليه بنواله لأنه أبكاه بحادثاته وخطوبه بعد أن كان صديقا حميما له(٣).

ويبدو أن نظرته الى الزمن خضعت لعوامل نفسية استقاها من تجربته في الحياة، فبعدما عبر عن سخطه من الزمان وجوره، نراه يعلن رضاه وقناعته بتجربته مع الأيام وما سعى عليه الجديدان من خير وشر واستخلاص فلسفته وتكاملها في الحياة:

حسبي بما أدت الأيام تجربة سعى علي بكأسيها الجديدان (البسيط)

دلت على عيبها الدنيا وصدقها ما استرجع الدهر مما كان أعطاني(٤)

ويجابه خطوب الزمن وتقلباته بهمته القوية التي تسلح بها فيقول:- (الطويل)

وقد عجمت مني الخطوب ابن همة متى مايربه منزل السوء يرحل(٥)

(١) ينظر م. ن ص ٥٤-٥٥، ٢٤، ١٢٦، ١٤١، ٢٥٥.
(٢) شرح ديوانه ص ١٥٦ وينظر ص٨٩.
(٣) ينظر م ن ص٢٠٨، ٢٧٨،٢٢٨،١١٢،٨٢،٢٨،٢٦.
(٤) م ن ص ١٢١-١٢٢ وينظر ص٢٩٦،١٢٥.
(٥) م. ن ص ٢٧ وينظر ص ١٥٠.

وسلاحه الآخر الذي أراع به الزمان وأرهبه هو الممدوح حين يرجوه إذ يقول:-

تراءت له الأحداث حتى إذا اقتنى رجاءك صدت عنه عن قرب

يبدو أن إحساسه بالزمان متقلب فبعد أن رأيناه قد خبر الدنيا وعرف عيبها وزوالها، وأن الدهر الذي أضحكه عاد فأبكاه، نراه يجابه خطوب الدهر بسلاحين هما همته وشجاعة ممدوحيه وكرمهم.

الحيوان: اهتم مسلم بموضوع الحيوان، وعلى الرغم من أنه لم يخصص قصائد مستقلة بوصف الحيوان إلا أنه اعتنى به عناية متميزة، وجاءت عنايته هذه من خلال الأغراض التي تطرق اليها، وإن وصفه هذه الحيوانات لم يكن وصفا تقليديا أو عابرا إنما كان يتخلله حس وعاطفه مما يدلل على أثر صورة الحيوان في نفسه.

فقد أولى النوق اهتماما كبيرا وكان يعود إليها كثيرا في مقدمات قصائده ووصف رحلته الى الممدوح، فكثيرا ما كان يصف حركتها ونشاطها، فهذه الناقة تسير بسرعة الريح ولا تعرف التعب أو الملل:-

إلى الإمام تهادانا بأرحلنا خلق من الريح في أشباح ظلمان

كأن إفلاتها والفجر يأخذها إفلات صادرة عن قوس حسبان (٢)

وإذا اشتد سير الليل على هذه النوق لم تبال، ولم تقطع سيرها في النهار.

---

(١) م. ن ص ٧٦ وينظر ص٢٠٥، ٢٢٣.

(٢) شرح ديوانه ص ١٢٦-١٢٧، وتكررت صورة الرحلة، ووصف سرعة الناقة وسيرها ليلا ونهارا، ينظر م.ن ص٧٤، ٧٦، والحسبان: سهام صغار يرمى بها عن القسي الفارسية، وقيل: هي سهام يرمي بها الرجل في جوف قصبة، ينزع في القوس ثم يرمي بعشرين مذها فلا تمر بشئ إلا عقرته، وقال شارح الديوان: هي ضرب من القسي حسبانية منسوبة الى رجل او بلد – ينظر لسان العرب مادة حسب.

تطـوي النهــار فــإن ليــل تخمطهــا باتت تخمط هامات القراديد (البسيط)

مثــل الســمام بعيــدات المقيــل إذا ألقى الهجير يدا في كل صيخود [١]

ونلاحظ عند وصفه الناقة يعمد الى الألفاظ البدوية الوعرة التي تتناسب مع البيئة العربية القديمة.

واقترن ذكر الأسد عنده بغرض المديح وعبر عن شجاعة الممدوح وشدة بأسه، وتكاد تكون صورة تشبيه الشجعان بالأسد (من أكثر الصور استعمالا في قصائد الشعراء لأنهم كانوا ينفذون من خلالها إلى الفخر والشجاعة والإشادة بالماضي المتمثل في صورة هؤلاء)[٢]. فالممدوح لا يبحث عن الولايات والإمارات وإنما هو كالليث راحته أن يقاتل[٣].

وفي صورة اخرى جعل الليث يحاكي الممدوح ويفعل مثل فعله وأراد بذلك ان يبين شجاعته وشدة بأسه فقال:- (الكامل)

وكــأن ليــث الغــاب فــي إقدامــه يومــا رآك تريــده فحكاكــا [٤]

والليث كالممدوح في شجاعته واندفاعه وبأسه في الحرب:

كالليــث بــل مثلــه الليــث الهصــور إذا غنــى الحديــد غنــاء غيــر تغريــد

وكما استمد صورة الليث للتعبير عن شجاعة الممدوح وبأسه فقد وظفها للتعبير عن كرم الممدوح وسخائه فقال:- (الطويل)

جبــان عــن الإمســاك غيــر تخلــق وفي البذل والإعطاء ليث مصمم [٦]

---

(١) شرح ديوانه ص١٥٦-١٥٧، هامات القراديد: جمع قردد وهو المرتفع من الجبال، السمام: طائر يشبه القطا، الصيخود: شدة الحر، والسير يكون بالليل والنهار اما السرى فلا يكون الا ليلا – لسان العرب – مادة سير.

(٢) الطبيعة في الشعر الجاهلي ص ١٧٢.

(٣) ينظر شرح ديوانه ص١٤.

(٤) م. ن ص٩٨.

(٥) م ن ص١٥٩.

(٦) م. ن ص ١٨١.

والممدوح في دفاعه عن الإسلام والخلافة كالليث يحمي مع أشباله (الآجاما) وهو ليث مفترس لكل من يخرج عن طاعته، وأسد ضرغام لا يقتل إلا الأبطال[١].وأحيانا يستعير صفات السبع للتعبير عن شجاعة الممدوح، إذ جعل للحرب أنيابا عصلا كناية عن شدتها وضراستها:

ناب الإمام الذي يفترعنه إذا ما افترت الحرب عن أنيابها

ولأن الظباء أجمل الحيوانات أجسادا وأطيبها أفواها و هي لا تعرف المرض حتى قالت العرب للمعافى (به داء ظبي)[٣]، فقد شبه مسلم فتاته في مشيها وخوفها من الواشين بالظبية التي تخلفت واذفردت عن القطيع فهي خذول تراعي الذبت، إذ يقول:

أتتني على خوف العيون كأنها خذول تراعي النبت مشعرة ذعرا [٤]

(الطويل)

ولأن الصور والتشبيهات القديمة لاتفارق مخيلته، فقد شبه فتياته بالظباء في طول الأعناق وبالبقر لشبه عيون الجواري بعيونهن، فقال:-

أرود بعيني منظر اللهو والصبا وأهوى ظباء الإنس والبقر العفرا

ويشبه جاريته في ملاحتها ودلالها بالشادن المتدلل بقوله: (الطويل)

تحملت هجر الشادن المتدلل وعاصيت في حب الغراية عذلي [٦]

---

(١) م. ن ص ٦٣،٦، ٢٠٦.

(٢) شرح ديوانه ص ٧، العصل: التي اعوجت فصارت اطرافها مائلة الى الخلف، والعصل أشد بأسا من المستقيمة ،

(٣) مجمع الأمثال ١٦٣/١ وينظر التمثيل والمحاضرة للثعالبي ص٣٦١، والزمن عند الشعراء العرب قبل الاسلام – عبدالاله الصائغ ص٢٢٦.

(٤) شرح ديوانه ص٤٥- الخذول: هي التي انفردت من القطيع، ويرى د. نوري القيسي أن الشعراء كانوا يعمدون الى تصوير الظبية و هي متأخرة عن الأصحاب لتكون منعزلة و هي في هذه الحالة تتبين محاسنها، لأنها لو كانت في القطيع لم يتبين ذلك منها – ينظر الطبيعة في الشعر الجاهلي ص ١٤٣.

(٥) شرح ديوانه ص٤٧ وينظر ص٣٤٢،٥٠.

(٦) م.ن ص ١٤١، الشادن: ولد الظبية الصغير الذي قوى على المشي، الغراية: الصبا.

وأعجبه من الغزال جماله وخفته، فشبه به فتاته التي تصيد بطرفها، [1] ونراه أحيانا يستعير صفات وطبائع الحيوانات للتعبير عن الحالة التي يريد أن يصورها، إذ جعل الممدوح من شدة شجاعته يلقح الحرب فتأتيه بالقتلى إذ يقول:- (البسيط)

لا يلقح الحرب إلا ريث ينتجها من هالك وأسير غير مختتل [2]

وشبه المجذاف الذي يقود السفينة بلجام الفرس [3]

وقد اهتم بالطير في صوره، فعندما أراد أن يصور انهزام العدو وسرعة تشتتهم في المعركة شبههم بالنعام الذي عرف بالجبن والسرعة فقال:-(البسيط)

ما كان جمعهم لما لقيتهم إلا كمثل نعام ريع منجفل [4]

ووظف سرعة النعام في صورة أخرى، بين من خلالها شجاعة الممدوح و هو يحارب العدو بكل فرس سريع كأنه يعوم في الغبار المرتفع، فقال:- (الطويل)

بكل سبوح في العجاج كأنما تكنف عطفيها جناحا خفيدد

إذا هن غامسن الدجى بغنيمة قسمن السرى في كل سهل وأجلد [5]

وعندما يبث همه وشكواه من هجر الحبيب يهزه منظر الحمام على الأغصان، فإذا بكت أو دعت اهتزت هذه الأغصان استجابة لدعائها، أما هو فلا أحد يسمعه أو يحن إليه:

هذي الحمامات إن بكت ودعت أسعدها في بكائها الفنن(المنسرح)

فمن على صبوتي يساعدني إذا جفاني الحبيب والسكن [6]

(١) ينظر م.ن ص ٢٤٢، ٢٤٠، ٢٦٨،٣٣٦،١٩٦،٩١،٢٢٦.
(٢) م. ن ص ١٠.
(٣) ينظر شرح ديوانه ص ١٠٩.
(٤) م. ن ص٢٠، وينظر التمثيل والمحاضرة ص ٣٦٢.
(٥) م. ن ص ٧٧-٧٨.
(٦) م ن ص١٧٣ وينظر تعليق محقق الديوان على هذه الصورة - مقدمة المحقق ص ٤٣.

وذكر في صورة الذسر والثور والبوم والهد هد والغراب والأخيل والسمام والذئب والنحل والنمل [1].

(١) م. ن ص ١٠٧، ٦٨، ١٩٢،١٥٥،١٥٧،٢٧،٣٨،٧٥، ٣٣٧،الأخيل: طائر يستعمل في النحس، السمام: طائر يشبه القطا.